حقيقة النص (٤)

في الفصل السابق «منهجية التعامل مع النص» وردت إشارة إلى أن القارئ أو المفسر كمتدينين ومؤمنين بالنص المقدس، يريان إمكانية التعامل مع حقيقة النص أو الحقيقة التي يكون النص في صدد تبيانها وتبيان مراد النّاص منها. وهذا الاعتقاد يشكل الخط الفاصل الواضح بيننا وبين الذين لا يعتقدون أساسًا بحقيقة وهوية النص.

فالذين يعيشون في مدار " الحياة الطبيعية "، التي تشكل بالنسبة لهم حلقة مقفلة من تعاقب الأيام والليالي والسعي لتوفير الحاجات المادية، وحتى الاجتماعية والسياسية المتشابهة والمكررة في مقابل الذين اختاروا النمط الآخر، أو بتعبير المرحوم العلامة الجعفري اختاروا "الحياة العلميّة ـ العقلية" فإنهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا في بحث دائم وراء الحقيقة.

في حين أن البعض الآخر اختار نمطًا فكريًا يبتعد عن أنصار الطبيعة أو البحث عن الحقيقة، بل توصلوا إلى اعتقاد بعدم وجود تلك الحقيقة من خلال النتائج التي قادتهم إليها الفلسفة، ورفض بعضهم فكرة وجود الله. وإن اليأس والضياع اللذين يسببهما هذا النمط الفكري والاعتقاد، دفعهم للجوء ثانية إلى الدين والحياة المعنوية، مثل " كانت " الذي اختار الدين في ثنائية الدين والعلم، أو كما عبر عنه " نيتشه" بأنه كان " أي كانْت " مسيحيًا نبيهًا! [١]

وما يدل على هذا التوجه والاعتقاد الدينيين أو الحياة المعنوية لدى "كانت" واضح من جهة أن الإنسان في النهاية يبحث عن طمأنينة القلب والروح

وسكينتهما. وقد استطاع " كانت " بلوغ ذلك، وكان آخر ما تلفظ به قبل موته "هذا جيد!" وطلب أن يُكتب على شاهد قبره أحب عبارة إلى نفسه: «شيئان، كلما تكررا وترسخا يتحولان إلى عمق فكري، ويدفعان الذهن إلى التعجب والهيبة ويجعلانه دائمًا في حالة تأمل تلكم السماء ذات النجوم فوقي وذلكم الضمير الذي في داخلي!».[٢]

أو بتعبير آخر، إن المفكر لا يتصور نفسه في النهاية متروكًا، أو منقطعًا عن الوجود والهوية والمعنى، أو في الفراغ، فمن خلال طبقات الظلام والوحدة التي تسيطر على ذهنه، يرى جلاء الحقيقة، وهذا الوضوح دون شك له علاقة بجوهر الخلق والوجود الإنساني في الفطرة الإلهية للإنسان التي تمثل كتاب نفس الإنسان، ولهذه الفطرة وكتابها قراءات متعددة أيضًا!.

فالتنوع الذي نشاهده في حياة البشر، والتعدد في الأساليب والآداب والعادات بينهم، يعود أو يتناسب مع ما اختاروه من فلسفة لحياتهم سواء أكان ذلك بصورة واعية أم غير واعية. كالفرق بين أسلوب عيش فرد استطاع وضع تعريف لنفسه وهويتها وبين آخر اختار أن يطلق لها العنان دون أي تدخل. فالنص المقدس يشكل المدخل الذي يستطيع الإنسان أن يتعرف من خلاله بشكل صحيح على نفسه المعقولة وفطرته الإلهية، وبالدرجة أو المستوى التي يتعرف فيها على نفسه يقترب أكثر من مفهوم ومعنى وحقيقة النص. وبتعبير مولانا جلال الدين الرومي إن الذي يستطيع أن يدرك بشكل صحيح معنى القرآن ولديه القدرة على معرفة جوهر القرآن هو الذي صفىّ ونقىّ روحه وكبح جماح رغبته. وقد كان لـ "سانت أوغسطين" مثل هذا الرأي في مبحث فهم الكتاب المقدس.

وكما أنه من الواجب أن يكون الإنسان على طهارة ظاهرية للمس ظاهر القرآن، فإن لمس حقيقة القرآن وباطنه غير ممكنة أيضًا دون طهارة الروح : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الوقعة، الآيات ٧٧ إلى ٨٠).

وفهم حقيقة القرآن تشابه " العطر أو رائحة المحبة " اللتين عبر عنها حافظ حين قال :

ما لم تكتحل عيونك بغبار درب الخمارة، فلن تصل أبدًا إلى رائحة حب الفناء./ إذا كنت تطمح لشرب تلك الكأس الخمرية المرصعة، فإن عليك أن تكنس بأهدابك أبواب الخمارات. / ذاك الكلام الذي يهذر به اللسان، أيها الساقي ناولني الخمر وإليك عن الكلام.[٣]

وظاهر الآية يريد القول إنه إذا أردت أن تلمس القرآن بيدك يجب أن تكون على طهارة، ولا يبدو أن المراد من الآية هذا فقط. ومن الممكن أن يشكل هذا البعد مصدر رضا لأهل الظاهر الذين لا يهتمون سوى بالتجويد وأداء الحروف بمخارج صحيحة، غير أن الآية في صدد بيان معرفة القرآن والتوصل إلى جوهر حقيقته :

فالكلام يأتي في سياق تكريم القرآن وإجلاله، ومن هنا ندرك أن المقصود من لمس القرآن ليس تمرير اليد على سطوره وكلماته، بل العلم بمعارفه، التي لا يبلغها سوى من استطاع تطهير نفسه وأخلاقه ".[٤]

من هنا، نجد أن القلوب الطاهرة هي التي تستطيع إدراك القرآن وفهمه بشكل أفضل. وإن أبواب الفهم تنغلق أمام القلوب التي تبلغها الأدران والأوساخ.[٥]

ومن جهة أخرى، فإن طهارة قلب الإنسان لا حدود لها ولا نهاية، وهي مرتبطة بالفهم العميق للقرآن الذي لا نهاية له أيضًا. ولقد تنبه الإمام الفخر الرازي إلى صفة «الكريم» التي تتضمنها الآيات حول القرآن الكريم، ورأى أن صفة الكريم تعني الكلام الذي لا تزول لطائفه وجدته على أثر التكرار، ويبقى نضرًا وريان.[٦]

الملاحظة المهمة هنا أن بعض المفسرين مثل الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير، والشيخ الطوسي في التبيان، يرون أن " المطهرون " هم الملائكة في السماء[٧].

وقد تم التركيز على الناحية الظاهرية في القراءات المتعددة لعبارات ومفردات هذه الآيات في التفاسير، ويمكن حصرها في ثلاثة استنتاجات:

١ ـ أن المقصود هو ظاهر القرآن، أي حرمة مس القرآن على غير الطاهرين من ناحية الظاهر.

٢ ـ أن المقصود هم الملائكة في السماء.

٣ ـ المراد هو الطهارة القلبية والروحية للإنسان الذي يريد أن يحلّق في فضاء معرفة الكتاب المكنون، وأن يتوصل إلى حقيقة قسم «مواقع النجوم العظيم» الذي أقسم به الله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾. فهل من المعقول أن تكون مثل هذه المقدمات والإشارات كالكتاب "الكريم" و"المكنون" للتأكيد فقط على الطهارة الظاهرية أثناء القراءة ولمسه باليد؟ أم أن المقصود هم الملائكة المطهرون والمنزهون؟

ويبدو هنا أن تفسير العلامة الطباطبائي الذي يعتبر أن باستطاعة الإنسان الذي يتمتع بطهارة القلب والروح معرفة حقيقة القرآن الكريم، هو أبرز تفسير وتأويل للآية. وينقل ابن عربي عند حديثه عن هذه الآية في التفسير ـ المنسوب له ـ رواية عن المسيح ـ عليه السلام ـ تبعث على التفكير والتأمل: «لا تقولوا إن العلم في السماء وليس في عمق الأرض، وليس خلف البحار... بل إن العلم موجود في قلوبكم. أدبوا أنفسكم بأدب الروحانيين في حضرة الله، حتى تكون محلاً صالحًا لقبول العلم" (٨)

في هذه الحالة لا يمتلك الإنسان نظرة خارجية حول من الذي يأتي بالعلم من السماء أو من يستخرجه من أعماق الأرض أو من يأتي به من وراء البحار.

بل إن التلقي والفهم ينبعان من داخل الإنسان، ولا شك أن المراد من العلم في هذا الكلام هو نور المعرفة، النور الذي يمنح العلوم هويتها ومعناها، وهذه هي الحقيقة الموجودة في النص، وإن الله لم ينزل النص على نبي الإسلام أو موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ عبثًا، وهي حقيقة تواجه اختلافًا وتعددًا في الآراء:

أ) البعض يعتقد بوجود حكمة في النص، لكننا لا نستطيع التوصل لها، وأن النبي والأئمة المعصومين فقط باستطاعتهم ذلك، وهم قدموا لنا وجوها وجوانب من هذه الحكمة حسب ما تقتضيه المصلحة. وأن جميع المفسرين الذين استحسنوا أو اكتفوا بالروايات والأحاديث ولم يكتبوا جملة أو قدموا رأيًا خاصًا بهم، فعلوا ذلك لاعتقادهم بعدم إمكانية الوصول إلى حقيقة النص القرآني.

من الضروري هنا، أن نملك نصًا واضحًا ومقنعًا حتى نوافق على ما تضمنه من وجهة نظر، ففي حين أكد الإمام أحمد بن حنبل على النص في مقابل التأويل، إلا أن «ابن القيم» عندما يناقش موضوع الإفتاء عند أحمد بن حنبل يعتقد أن الأصل الأول من أصول الافتاء لديه كان يعتمد على النص، وأن الإمام أحمد كان يفتي عندما يجد نصًا معتبرًا، دون أن يأخذ بالاعتبار أن تكون الفتوى الصادرة أو النص المرجح مخالفين لرأي مهما كان صاحبه.[٩]

النقطة التي يجب التوقف عندها هي أن الإمام أحمد كان يتعامل مع النص القرآني والاحاديث ـ طبعًا الأحاديث الصحيحة والثابتة في نظره ـ بالمستوى نفسه، وإذا ما تعارض ظاهر القرآن مع بعض روايات الأحاديث النبوية أو اصطلاحًا خالف السنة؛ فإنه لم يكن يسقط السنة. [١٠]

ففي مقابل الآيات التي تتحدث عن صفات الله، كان بعض المفسرين من أهل الظاهر يرى أن تأويلها لا يعلمه الا الله، كحديثهم عن آية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾، التي توصل إلى قاعدة تقول: إن الاستواء معلوم، والكيف مجهول لا يعلمه إلا الله.[١١]

ب) البعض يعتقد أن الوصول إلى حقيقة النص ممكنة. لكن النخبة أو العلماء فقط هم من يستطيعون ذلك دون العامة.

وانطلاقًا من هذه الزاوية يمكن مناقشة التجاذبات الطويلة لزعماء الكنيسة حول ترجمة الكتاب المقدس أو العهد الجديد، فلقد سعى رجال الكنيسة لتعميم

فكرة أن التقرب إلى الله ـ تعالى ـ وتلقي جوهر الإيمان، لا يتمان إلا بواسطتهم وأن لا وجود لطريق آخر؛ لذلك عارضوا ترجمة الإنجيل بشدة، خوفًا من انفضاح الاعيبهم وتقييم ادعاءاتهم الكنسية إذا أدرك الناس كلام المسيح دون تدخلهم.

وهنا، فإن دعاة الرأي الأول الذين توقفوا عند استدلال واضح وصريح، قد تعرضوا للنقد الكبير من علماء الدين ومفسري القرآن الكريم، فقد قالوا:

١. عندما يوصف القرآن الكريم بأنه الكتاب "المبين" و "النور" و "الفرقان"، عندها لا يمكن أن يكون معتمدًا أو محتاجًا لأمر من خارجه لإيصال المعنى حتى ولو كان ذلك الأمر هو الحديث.

٢ ـ إذا تعارضت آيات القرآن الكريم مع الحديث فإنهم يقولون بأصالة القرآن الكريم وليس الحديث، كما هو الحال مع مجموعة الأحاديث والروايات التي تتحدث عن التحريف، صراحة أو تلميحًا، والتي يسقطون اعتبارها؛ لتعارضها الصريح مع النص القرآني: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر، الآية ٩).

وقد كتب العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية يقول: " القرآن الكريم ذكر حي وخالد ومحفوظ من الزوال والنسيان، مصون من الزيادة التي تبطل كونه ذكرًا، ومن النقص الذي يفقده التأثير، ومن تبدل مواقع آياته بحيث لا يعود ذكرًا مبينًا لحقائق معارفه، فهو محفوظ من كل هذا. إذًا فإن الآية الشريفة تدلل على حفظ القرآن من التحريف، تحريف بمعنى التلاعب فيه بالزيادة أو الإنقاص أو تغيير مواقع الآيات؛ لأنه ذكر الله، وبما أن الله ـ تعالى ـ إلى الأبد، فكذلك ذكره." [١٢]

والسيوطي في تفسيره " الدر المنثور " يشير إلى الآية ٤٢ من سورة فصلت ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصلت، الآية ٤٢)

ويقول: إن القرآن الكريم محفوظ من أى نوع من التعرض.[١٣] على الرغم من أن علماء القرآن قد أشاروا في بعض كتبهم عند الحديث حول القرآن الكريم

: كمعاني القرآن (الفراء) و البرهان (الزركشي) والإتقان (السيوطي)،-إلى وجود عدد من القراءات المختلفة لبعض الكلمات القرآنية، حتى دون تغيير في صورة الكلمة، وقالوا إن القراءات الإعرابية المختلفة لكلمة واحدة تؤثر لزوما في معنى هذه الكلمة، لكن ما لا يمكن القبول به هو القول بأن آية قد حذفت من القرآن أو زيدت عليه.

٣. يقوم الاعتقاد الإسلامي المستند إلى القرآن والسنة على أن دين الإسلام هو الدين الخاتم، وهو ما يفترض بقاء الكتاب السماوي ـ القرآن ـ بعيدًا ومصونًا عن التعرض لأمر.

في المقابل يرى اليهود والمسيحيون أن دين كلّ منهما هو آخر الأديان الإلهية. ونرى أيضًا ما قام به العلماء اليهود ـ الفريسيون والصدوقيون ـ من تكفير للمسيح بناء على ما ورد في نص العهد الجديد، وكذلك موقفهم من نبي الإسلام (ﷺ)، انطلاقًا من اعتقادهم بأن المسيح ومحمدًا ـ صلوات الله عليهما ـ هما من أصحاب البدع. على أية حال، فإن الاعتقاد بخاتمية كل دين لدى المؤمنين بأي من الأديان السماوية هو اعتقاد ذاتي، حتى الدين الزرادشتي. ولا يقف-الأمر عند ذلك فحسب، بل يتعداه إلى موضوع المستقبل المثالي للإنسان والعالم؛ إذ يعتبر أتباع كل دين أن المستقبل له وأنه وأتباعه على الحق دون الآخرين.

بلا شك أن الأبعاد الثلاثة التي أشرت لها هي بحاجة إلى المزيد من البحث والتفصيل، وخلاصة الكلام هي أن الإنسان المؤمن والمسلم في مقابل القرآن الكريم يعتقد أن النص يتحدث عن حقيقة ما، ويطرح سؤالاً يدور حول مسألة هل النص مساوٍ للحقيقة؟ والقارئ بتعبير «علي حرب» هو في عبور من نص الحقيقة إلى حقيقة النص؟ [١٤] أو ما العلاقة الموجودة بين النص والحقيقة؟

هل يبين النص الحقيقة بوضوح ودون مواربة؟ أم أن القارئ، ومن أجل اكتشاف الحقيقة، بحاجة إلى تفسير وتأويل للنص؟ ما الضابط والمعيار والإمكانية الموجودة في تصرف القارئ من أجل الوصول إلى حقيقة النص ومراد الناص ؟ وفي النهاية هل قرّاء النص هم على مستوى واحد في معرفة

النص والقدرة علي الاستنباط بحيث يمكنهم الوصول إلى نتيجة واحدة، أم أن بإمكانهم التوصل إلى نتائج مختلفة حول حقيقة النص؟ عندما يقرأ الفيلسوف والعارف والفقيه والمحدث والمؤرخ النص، ومع إقرارهم بوجود حقيقة ما في النص، فهل يكشف كل واحد منهم عن وجه واحد ومتشابه؟ أم أن كلا منهم وبناء على زاوية رؤيته ومقدماته المعرفية وعلمه وطهارة روحه يستطيع التوصل إلى تجلٍ مختلف للحقيقة، وقد لا يمكن لزومًا اعتباره مغايرًا للآخر؟

هل يتحدث النص عن حقائق متعددة ومتنوعة؟ وأن القارئ يواجه تعددًا في الحقائق؟ في هذه الحال، من المحتمل أن يتوصل قارئ ما إلى حقائق في النص أكثر مما يتوصل إليها قارئ آخر ؟ فعلى سبيل المثال، أي مفسر أو قارئ من أهل السنة لا يمكنهما الاستنتاج من خلال قراءته التفكرية فى القرآن الكريم أن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو خليفة النبي (ﷺ)، في حين أن المفسر أو القارئ الشيعي لديه مثل هذا الاستنتاج أو التلقي، حتى إن بعض المفسرين من أهل التشيع القائلين بالتحريف بمعنى الاختصار من بعض آيات القرآن، ينقلون أمثلة عباراتها تدلل بشكل صريح وواضح على إمامة «علي» (عليه السلام)، وهو ادعاء رفضه شيعة آخرون مثل العلامة الطباطبائي.

بتعبير آخر، إن هذه الفرضيات أو التوجهات أو الميول المسبقة لدى قارئ النص، سواء من الشيعة الاثنى عشرية أم الإسماعيلية، أم السنة على مذاهبها المختلفة من مالكية وشافعية، فإن استنباطه حول مقولات الإمامة والولاية والوصاية والخلافة يعتمد على المباني الكلامية لمذهبه، والقراءة أيضًا تؤثر في استنباط الأحكام الفقهية. الكلام الأساسي ليس حول اختلاف القراءات في مجال الأصول والمسائل الكلامية والفقهية والفرق الإسلامية، بل الكلام حول ما يمكن أن يجده أو يريده القارئ من سعيه وراء حقيقة النص. هل حقيقة واحدة أم حقائق متعددة؟ وأية حقيقة تكمن وراء ظاهر الآية؟

كنت قد أشرت في البداية إلى ملاحظة أساسية تقول إن الإنسان في اعتقاد "كانت " في بحث وراء أجوبة عن أسئلة روحه الأربعة :

ما التصور الحقيقي أو المطلوب للإنسان؟ هل يقرأ النص المقدس من أجل التوصل إلى ذاته الحقيقية؟ أم أنه يسعى إلى زيادة أو توسيع أفقه العلمي؟ هل النص المقدس يمثل بالنسبة له كتابًا تاريخيًا وأخلاقيًا؟ أم هو كتاب كـ"المرآة" يعكس حقيقة روحه؟

يمكن القول بأن البحث عن الحقيقة في النص المقدس يرتبط بالسعي الحقيقي للقارئ، وإذا لم يكن القارئ باحثًا فإنه يتوقف عند صورة وظاهر النص، وإنه ما لم يستول الشك على روحه، فلن يستطيع التوصل إلى الحقيقة، فهو لا يستطيع المشي بأعين مقفلة.

والباحث عن الحقيقة يلزمه أن يكون متسائلاً وشكاكًا، ويسعى لإيجاد الأجوبة التي تمنحه طمأنينة القلب والروح، أو الوصول إلى نقطة يشعر معها بالطمأنينة والرضا يعتملان داخل روحه، وبتعبير نيما (يوشج) : ليس هناك وجود سوى لحقيقة واحدة، هي كيف يجب أن نكون، ومحال أن يصير الأعمى ومقيد الرجلين، هاديًا أو مرشدًا. ومن أجل أن لا تكون أو تبقى العين مقفلة، فإن من واجبات العين المفتوحة التقييم ومعرفة الملاقات واختلاف وتمييز الظواهر والتساؤل حولها، فلقد جاءت مجموعة من الصحابة إلى النبي (ﷺ) حدثوه عن بعض "الوسوسات" أو "الأسئلة" التي تولدت في " أذهانهم ". أسئلة حول جوهر الدين والتدين، حول ذات الله ـ تعالى ـ والنبي لم يلمهم أو يستخف بهم، بل على العكس، شجعهم واعتبر أن هذه الوسوسات وهذه الإشكاليات أو الشكوك هي مقدمة الوصول إلى اليقين. وقال (ﷺ) : " ذاك صريح الإيمان.... ذاك محض الإيمان ".

فالتساؤل مهم وحساس إلى حد أن القرآن الكريم قد أشار إلى تساؤلات إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حول كيفية إحياء الموتى في يوم القيامة وحاجته للاطمئنان القلبي. (سورة البقرة، الآية ٢٦٠) من الممكن أن يقرأ المسلم أو المؤمن القرآن الكريم في حياته على شكل برنامج يومي أو ليلي، دون أن يكون لديه أسئلة، وأن يأنس بالقرآن ويكسب ثواب قراءته، لكنه عندما يفكر في كل

آية، قد يشك، ويبحث حينئذٍ عن إجابات لشكوكه، عندها سيتلذذ في التوصل إلى اليقين.

إن للاهتمام بالشك والتأمل فيه من أجل الوصول إلى الحقيقة أو اليقين أهمية كبيرة، وأحيانًا تكون أهمية اليقين متناسبة مع الشك كمدخل موصل إليه. وينقل الجاحظ في «كتاب الحيوان» حوارا بين ابن جهم والمكي. يقول ابن جهم للمكي : أنا دائمًا في شك. ويقول المكي في رده: أنا دائمًا على يقين! يستنتج الجاحظ أن ابن جهم يشك موضع الشك، وأن المكي يتيقن في موضع اليقين.[١٥]

وهنا يجب الحديث عن " الشك الموصل "، الشك الذي يوصل الإنسان إلى اليقين، وليس الشك الذي يترك صاحبه في غيابات الجحود والضلال والإنكار. خلاصة الكلام، من أجل التفتيش عن الحقيقة في النص المقدس، لا يمكن التوقع أن يصل القارئ إلى حقيقة النص دون مكابدة عناء التفكير أو العبور من نفق الشك، وأن دائرته تتناسب مع مجال علم ومعرفة وأخلاق القارئ. وأسلوب الشك هذا لم ينل اهتمام واعتناء الكثيرين على عكس ما فعله النبي (ﷺ) الذي حض وأكد عليه واعتبره مساويًا ومعادلاً لحقيقة الإيمان. أمّا الذين وقفوا عند حدود الظاهر، فهُم بمجرد سماعهم لسؤال أو تعبير يشوبه التردد أو الشك الجدي والمؤثر، يسارعون إلى الانطواء على أنفسهم ويطلقون لسان النفي والإنكار، ويرون أن فهمهم هو آخر الآراء، ولا يمكن لأي كلام آخر أن يضيف شيئا على عمق إيمان ومعرفة البشر. وبتعبير مولانا جلال الدين الرومي هم سكارى بأقداح الصور، وكقصة الحديث الذي دار بين إمام المالكية مالك بن أنس وأحد الأشخاص حين قال الرجل : يا أبا عبدالله! ما تعني الآية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (سورة طه ، الآية ٥) وكيف يتم الاستواء؟

فقال مالك: " الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالا . ثم أمر بالرجل فأخرج من المسجد ..." وكان مالك عندما نطق بهذه العبارة يتصبب عرقًا من شدة الغضب، وفي رواية أخرى أضيفت عبارة على كلام مالك هي، أنه إذا عاد أحد لمثل هذا

السؤال يقطع عنقه! السائل طرح سؤالاً من أبسط وأبده الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن.وعندما سأل آخر ابن راهويه عن كيفية الاستواء وهل الله ـ سبحانه ـ واقف أم جالس؟ أجابه "إن الله لا يتعب من الوقوف حتى يجلس، ولا يتعب من الجلوس حتى يقف، وأنت لأسئلة أخرى أحوج!" (١٦)

وقد نقل تعبير مالك بصورة مختصرة على هذا النحو :" الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة." هذا التشدد يبعث وسيبعث على عدم اقتناع السائل، كمثل شباب اليوم الذين لا نستطيع أن نسكتهم ونغضب في مواجهة أسئلتهم ونوجه لهم التهم. خصوصًا وأن روح الإنسان والشباب تحديدًا تبحث عن أجوبة مطمئنة، وإذا لم يحصلوا على جواب مقنع يفضلون الابتعاد، وإذا ما كان الله ـ تعالى ـ قد وصف نبيه بالرحمة واللين والحرص على المؤمنين، وأن حب المؤمنين له كان بسبب بشاشته (ﷺ)، والسبب أن النبي (ﷺ) كان يستمع لأحاديثهم ويجيب عن أسئلتهم أيًا كانت بصبر وطمأنينة. وإذا ما اعترفنا بعقل القارئ ودوره في فهم النص الديني، فمن البديهي أن القوة العاقلة للسائل هي قوة مقدرة ومستنتجة لا تكتفي بصورة النص، تلك الصورة أو الصورية التي لا تستطيع أن ترضي عقل الإنسان. ومن الطبيعي أن الصورية أو القشرية التي طفت على الدين جعلت البعض يظن أن الدين والعقل متعارضان يقفان بمواجهة بعضهما البعض الآخر بشكل من الأشكال، وهذا الاتجاه الذي يمكن تسميته باتجاه أهل الحديث والأشاعرة أيضًا، هو اتجاه لا يعترف بدورالعقل في التعامل مع النص المقدس، أو أنه يكتفي بما يستنتجه من ظاهر النص.

وهذا الاتجاه الظاهري الذي يمكن اعتباره أحد أساليب القراءات الدينية، أدخل أهل الحديث والأشاعرة لدى قراءتهم لبعض الآيات في الكثير من المصاعب. والملاحظة المهمة هنا هي أن هؤلاء لم يسعوا إلى الاستعانة بآيات قرانية أخرى عندما واجهوا مصاعب في فهم إحدى الآيات، أي لم يستعينوا بالقرآن نفسه.

على سبيل المثال، كل المفسرين الذين حاولوا تفسير الآية ٨٧ من سورة الواقعة التي تقول عن القرآن الكريم بأنه في ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أو الآية ٢٢ من سورة البروج التي تعتبره في ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، أو الآية ٤ من سورة الزخرف التي تعرف القرآن بأنه ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾، صوروا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكأن لديه مكتبًا أو مخزنًا أو أرشيفًا، أو أن صندوقًا يوجد في إحدى السماوات فيها اللوح المحفوظ. في حين أن هذه العبارات والعلائم تمثل تعبيرا.ورمزا عن اتساع العلم الإلهي.

ومن البديهي أن العلم الإلهي ليس بحاجة للأدوات والآلات اللتين يستعملهما الإنسان لحفظ علمه. باختصار فإن القرآن الكريم يقع في مجال العلم الإلهي، وإن الكتاب المكنون وأم الكتاب واللوح المحفوظ هي رموز من أجل تبيين ذلك العلم، ويمكن للقارئ وبالاعتماد على عقلانيته أن يجد من بين هذه الرموز طريقًا لمعرفة الحقيقة. وإذا كان مثل هذا التلقي والمعرفة ممتنعة، فعلى ما يقول الطبري، كتاب هو بيان للناس ووسيلة لهدايتهم، لا يمكن أن يشتمل على مواضيع لا يحتاجها الإنسان في حياته، أو أن لا يجد الذي يحتاجه في النص، وأن لا سبيل لمعرفة النص وتأويله. (١٧)

وهنا يمكن تمييز نوعين من قراءة النص عن بعضهما البعض الآخر بالاعتماد على التوضيحات السابقة، وبالتالي مناقشة مباني ومبادئ وأسلوب كل واحد منهما.

١ ـ القراءة الدينية لأهل الحديث والأشاعرة.

٢. القراءة الدينية للعقلانيين، وهنا يمكن إدخال قراءة المعتزلة تحت هذا العنوان، والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي في قراءة أهل الحديث التي لا تقبل إلا بظاهر الفهم للآيات القرآنية أو بوجود قول مأثور يدل على النص، ولا يخافون تعارض الأحاديث حوله أو تضادها، وقد قيل عن ـ الحشوية ـ إحدى فرق أهل الظاهر : تروي أحاديث وتروي نقيضها يخالف بعض الحديث بعضًا (١٨)

وعلى سبيل المثال، فإن استنتاجهم وفهمهم للآيات المتعلقة بخلق آدم يستدعي التوقف عندها؛ إذ يقولون نظر إلى عين ماء، فرأى انعكاس صورة وجهه على صفحتها، فأمر أن يخلق آدم على صورته. لقد ذكر الله في النص المقدس بعض العبارات أو الكلمات التي تشكل إشارات تقود إلى معرفة الحقيقة، في حين نرى أن بعض القارئين لا يعتقد بهذه الإشارة ويريد الوصول إلى الحقيقة بالاعتماد على ظاهر النص. الأمر الذي يضعنا أمام نوعين من القراءات. القارئ الأول يرى النص على أنه " منظومة " لا يمكن أن تحمل أية إشارة أو كلام دون معنى أو غير مفهوم، والقارئ الثاني لا يهمه انتظام النص، وإذا لم يتوصل إلى معنى ومفهوم العبارة فإنه يرى أن علم تلك العبارة وتأويلها عند الله، ولا أحد لديه إمكانية معرفة وعلم النص.

وعلى سبيل المثال، في مجال الأدبيات الحماسية، فإن الفردوسي يعرف الشاهنامه بالتالي، إن محور ومدار النص يعتمد على العقل، وهو الشيء الذي لا يدركه القارئ في الوهلة الأولى ومن الممكن أن لا يعتبر ذلك عقلانيًا، غير أنه في واقع الأمر، وعن طريق فهم الإشارات يجد طريقه نحو العقل: لا تقل إن هذا كذب وخرافة، ولا تساوي بين الأنوار. / كل ما يتوافق مع العقل، يمكنه الوصول إلى طريق كشف معاني الرموز. (١٩)

كل المنتقدين أو المخالفين سموا أو جهدوا تقريبا للقول بالتعارض بين الدين والعقل أو " النص " والعقل. وجهدوا لإهمال المفهوم الرمزي لبعض العبارات، وأن يطرحوا بعيدًا الكلمات أو العبارات التي لا يمكنها في بعدها الظاهري أن تجيب عن أسئلة العقل الإنساني، وصنفوها تحت اسم "شبهات". ومن الواضح كما أشير، وبناء على النص المقدس أو فهم النص المقدس كمنظومة ذات معنى، لا يمكن القبول بأن الله مثلاً استند إلى العرش. هذه العبارة هي حتما عبارة رمزية وبحاجة إلى تأويل، وإن القبول بهذه الملاحظة يساعدنا على القول برمزية بعض العبارات والاصطلاحات مما يستوجب أن تكون قراءتنا للنص مختلفة عن قراءة الصوريين الذين بتمسكهم المطلق بالنص يعتبرون أن كل تأويل

هو خروج عن النص وتفسير بالرأي أو فرض رأي من الخارج على النص. الملاحظة المهمة جدًا في تأويل الإشارة الواعية للنص هي وجوب البحث عن قراءة واضحة يمكن الدفاع عنها عند تأويل منظومة النص، وفي الواقع أن تأويل الإشارة الواعية للنص ليس أسلوبًا أو سليقة أو ذوقًا حتى يستطيع أي قارئ كان طرح نظريته أو رأيه دون قيود وضوابط، وأن معرفة الله وتوحيده هما المحوران الأصليان ومدارا كل النصوص المقدسة، وعندما يريد قارئ أن يستنبط مفهومًا ظاهريًا من الآية " الرحمن على العرش استوى "، فإن عليه أيضًا أن يدخل في بحث نوم وصحوة الله! ويبدو واضحًا أن هذا المفهوم الظاهري لا يتوافق ولا يتفق مع كثير من الآيات الأخرى أيضًا.

بتعبير آخر، إن القراءة التي ترى القرآن الكريم كمنظومة كاملة يمكن تأويل موضوعاتها المتشابهة والمبهمة بالاعتماد على المحكمات، تختلف عن القراءة التي تتوقف أمام المتشابهات وتلغي أى تساؤل وتعتبره أو تحسبه بدعة. الأسلوب الثالث في قراءة النص هو الذي يركز كثيرًا على الإشارات، ويمكن تسميته بالتفسير الصوفي للنص، كتفسير ابن عربي للقرآن الكريم، الذي قدم فهمه ورأيه الخاصين للآيات في " الفتوحات المكية" ـ التفسير المنسوب لابن عربي ـ، أو تفسير الملا محسن الفيض الكاشاني وصدر المتألهين، أو العلامة الطباطبائي وإشارته الصوفيّة في تفسير الميزان، أو أسلوب الإمام الخميني في تفسير سورة الحمد. وإن كل هذه الأساليب إشارة واعية إلى أن المفسر يريد أن يكوّن أو يظهر أفقًا واضحًا وواسعًا من ظاهر النص، وأن هذا الأفق المضيء للنص على علاقة بأفق الروح الإنسانية.

إن هذا الأسلوب أو المنهج في النظر إلى النص المقدس القائم على البحث عن الحقيقة ممكن، أما إذا كان لدى القارئ منذ البداية اعتقاد بامتناع إمكانية معرفة الآيات، عندها كيف يمكنه القول بأنه باحث عن الحقيقة؟ وقد كتب الزركشي يقول في نقده للذين يعتقدون أن الله فقط يعلم تأويل الآيات وأن النبي (ﷺ) والآخرين لم يصلوا إلى ذلك : "إن الله لم ينزل القرآن أو أى جزء منه إذا

لم يكن لجهة منفعة خلقه، لا أحد يستطيع الاعتقاد بأن النبي (ﷺ) لا يدرك المتشابه من الآيات التي تدل على المعنى والمفهوم الذي هو مقصود الله.. وإذا قبلنا أن الرسول (ﷺ) يستطيع أن يدرك مفهوم المتشابه، فإن أتباعه ومفسري القرآن الكريم من أمته كذلك يستطيعون أن يكون لهم أيضًا فهمهم للمتشابه." اما ابن عباس فيقول: «أنا من الراسخين في العلم»، فإذا لم يكن للراسخين في العلم حظ من معرفة المتشابه ويقولون فقط " آمنا " فلا فضل لهم على الأشخاص الجاهلين؛ لأن أولئك يقولون الكلام نفسه. ومن ناحية أخرى لم نشاهد أن مفسري القرآن الكريم قد توقفوا عند الآيات المتشابهة وقالوا إن هذا الموضوع متشابه ونحن لا نفهم معناه. بل نرى أنهم عمدوا إلى تفسير الأحرف المقطعة." (٢٠)

والزركشي قال كلامه بالاعتماد على الاستنتاج الحاصل لديه من بعض الآيات المعروفة في بحث المحكمات والمتشابهات في القرآن الكريم (سورة آل عمران، الآية ٧) .

٣ ـ قارئ أو مفسر النص المقدس لا يستطيعان أن ينظرا إليه، ولا يتوقفا عند البعد التاريخي ومقتضيات الزمان والمكان والشروط السياسية والاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية لزمن نزول النص المقدس. فالنص قد كتب بلغة محددة وفي زمن معين؛ فإذا لم يعر البعد التاريخي والزمني أو عصر النص أية أهمية، فإنه حتمًا سيعاني من إشكال أو إبهام في إدراك النص. القرآن الكريم نزل باللغة العربية؛ لذا فإن فهم نص الآيات دون التوجه إلى المقتضيات الزمانية واللغوية للكلمات والأدبيات العربية غير ممكن، خصوصًا إذا توقفنا عند نقطة أن القرآن الكريم قد أوجد نظامًا لغويًا واحدًا ومشتركًا جمع حوله القبائل العربية جميعها.

فعلى سبيل المثال : إن كلمة "صلدًا" بمعنى " يقيًا " في لهجة هذيل."

«إملاق» بمعنى " جوع " في لهجة لخم.

" المنسأة " بمعنى " العصا " في لهجة حضرموت.

" الودق " بمعنى " المطر " في لهجة جرهم.

" بسّت " بمعنى " تفتت " في لهجة كندة.(٢١)

وقد أورد السيوطي في الإتقان سبعة وثلاثين شاهدًا استعمل فيها القرآن اصطلاحًا يتناسب مع إحدى اللهجات، كلهجة أهل اليمن وعمان وقبيلة طئ وحمير وهوازن. (٢٢)

إضافة إلى ذلك فإن القرآن الكريم قد استفاد من مفردات لغات أخرى يجدر التوقف عندها، على الرغم من أن البعض مثل الإمام الشافعي وابن فارس والقاضي أبي بكر و.... كانوا يعتقدون وبناء على تعبير:﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ في الآية الكريمة (سورة يوسف، الآية ٢) أن كل مفردات القرآن عربية كمفردة :

﴿أَبَارِيقَ﴾ (الواقعة، الآية ١٨) التي هي بالأصل كلمة فارسية من إبريق.

﴿أَخْلَدَ﴾ (الأعراف، الآية ١٧٦) كلمة عبرية.

﴿الأَرَائِكِ﴾ (الكهف، الآية ٣١) كلمة حبشية.

﴿أَسْفَارًا﴾ (الجمعة، الآية ٥) كلمة سريانية أو قبطية و....(٢٣)

وأن الاستفادة من مفردات مختلفة ومتنوعة في إطار بناء اللغة العربية، تضع القارئ في مواجهة واقع أن الشاهد القدسي والكلام الإلهي قد ارتديا لباسًا أو بعدًا أرضيًا، والقارئ أو المفسر لا يستطيعان دون التوقف عند الخصائص التاريخية والجغرافية والاجتماعية أن يصلا إلى المعرفة الكاملة للآيات. الأهم من ذلك، أن النص المقدس، قد التفت إلى شروط الحياة الاجتماعية والثقافية لزمن نزول الوحي، أى أننا نواجه طوال الفترة الزمنية التي نزل فيها القرآن على النبي (ﷺ) في مكة والمدينة والتي تصل إلى (٢٣) سنة آيات قد انتفى موضوعها بلحاظ التاريخ والزمن، فمثلا الآيات التي تتحدث عن نساء النبي (ﷺ) أو التي تتحدث عن الاختلافات المنزلية بين النساء.

● القرآن المجيد، سورة الأحزاب، الآيات ٣٠ إلى ٣٢
وسورة التحريم، الآية ١.

الآيات التي تتحدث عن موضوع تبني النبي (ﷺ) لأحد الغلمان، أي لصبي (٢) ، أو التي توضح كيفية الدخول إلى المنازل (٣)، أو التي وقعت في ظرف زماني أو عصر محدد (٢) سورة الاحزاب، الآيات ٤ و٥ (٣) سورة البقرة، الآية ١٨٩).

أليس للمفسر أو القارئ الحق في البحث عن تناسب بين النص المقدس والخصائص والمفاهيم الموجودة في عصرهما؟ وعندما يعتقد القارئ أو المفسر أن النص الذي يعتبرانه مرشدًا فكريًا وحياتيًا وأنه يحمل دليلاً ذاتيًا على خاتميته، فلا يمكنهما القبول بأنه لا يستطيع الإجابة عن حاجاتهما العصرية أو أن لا يجدا إشارات ترشدهما لحلها ؟ في الواقع أن أحد أهم العوامل التي تبعث على القراءات المتعددة أو المختلفة للدين، هو قراءة أولئك الذين أشاحوا النظر عن عصرهم، ودون التفات أو توجه للزمن والشروط التاريخية التي يعيشون فيها، ويسعون للعيش بناء على تلقيهم أو فهمهم الخاص للنص، وأن أسلوب تصرف وتعامل الطالبان مع الشعب الأفغاني المظلوم وثقافة تلك البلاد الآيلة إلى الاضمحلال يعتبران خير مثال على ذلك. كإجبار الشباب مثلاً على لبس العمامة وإطلاق اللحية وإقصاء النساء عن الحياة الاجتماعية وتدمير الميراث الثقافي والتاريخي، كلها دلائل على التحجر في فهم النص، وطبعًا كانوا سيبحثون عن وسيلة في روايات لتسوغ تصرفاتهم، ويثبتون بقوة أن إسلامهم مطابق للأسلوب المطلوب في الحياة المعاصرة!، وباختصار، فإن نتيجة هذه الأعمال لم تكن سوى النفور من هذا النمط الفكري والإشفاق على الشعب الأفغاني الذي وقع في أسرهم! إن المحاور السابقة يمكنها أن تشكل أساسًا لقراءة دينية مختلفة عن بعض القراءات الأخرى، وهي تقوم على :

١ ـ اعتبار القرآن الكريم نظامًا أو منظومة كاملة.

٢ ـ اعتبار القرآن الكريم أفضل دليل أو مرشد لرفع الإبهامات وفهم الآيات المتشابهة.

٣ ـ أن العقل الإنساني هو السبيل لفهم النص المقدس، ولديه القدرة على إدراك وفهم الآيات القرآنية.

٤ ـ أن لغة القرآن الكريم في بعض الآيات المتشابهة هي لغة رمزية، وأن هذه الرمزية أو الإشارات تمكن من الوصول إلى الباطن وتسهل فهمه.

٥ ـ وجود حقيقة في النص المقدس، وأن مهمة القارئ أو المفسر هي الكشف عنها، وأنه من غير الممكن التوصل إلى تلك الحقيقة دون الأخذ بشروط ومقتضيات الزمان.

٦ ـ عدم تجاهل القارئ للشروط التاريخية والزمانية واللغوية للنص، وكذلك شروط العصر ودورها في فهم النص المقدس، والمفسر الذي لا يأخذ المحاور السابقة بعين الاعتبار، ولا يرى إمكانية لفهم الآيات القرآنية إلا عن طريق الروايات، مسقطا بعض القضايا المعاصرة المهمة، مثل حقوق الإنسان والحريات المختلفة. لديه ـ ومن البديهي ـ قراءة مختلفة للنص، ويرى أن كل كلام يتعارض مع رأيه مخالف للدين، وأنه سيعمد إلى محاربة معارضيه بقوة، خصوصًا إذا ما كان في موقع يتيح له استغلال مقدرات السلطة وآلياتها في تثوير وتهييج الجماهير ضدهم على اعتبار أنهم أعداء للدين.

إن قراءة صدر المتألهين ـ الذي يعد من أساطين الحكمة في الحوزات العلمية ـ للدين والنص المقدس تختلف عن القراءة الرسمية لعلماء البلاط والسلطة الصفوية، وهو ما أجبره على اختيار العزلة والانزواء، وهى الحالة التي عبر عن قسوتها وألمها في نص حمّله شكواه من السلطة الصفوية في ذلك الوقت.

خلاصة القول هي أن لا نعتبر الرأي الآخر هو رأي صادر عن وسوسة الشيطان أو مخالف للدين أو أنه نتيجة للسياسة الأمريكية، إذ من الممكن أن تتحول قراءة معارضة أو مخالفة اليوم إلى نظرية متكاملة ومحكمة في الغد، كما هو الحال مع آراء ونظريات صدر المتألهين بعد مضي قرون عليها، حيث أصبحت محور اهتمام علمي وجدي، وفي المقابل فقد أسقط التاريخ معارضيه من ذاكرة الأيام.

الهوامش

(1) Garret Green , Theology Hermeneuties , and Imagination , London, Cambridge 2000 p 25

(٢) كانت، نقد العقل الخالص، ترجمة الدكتور مير شمس الدين أديب سلطاني، طهران، أمير كبير، ١٣٦٢، ص ١٤، المقدمة.

(٣) ديوان حافظ، اهتم به انجوى شيرازي، طهران، دار جاويدان، لا تا، ص ٣٧.

(٤) الميزان، ج ١٩، ص ٢٧٨.

(٥) محاسن التأويل، ج ١٦، ص ٢٤.

(٦) التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٩٢.

(٧) التبيان، ج ٩، ص٥١٠ والتفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٩٦ و ١٩٧.

(٨) ابن عربي، تفسير القرآن الكريم، ج ٢، ص ٥٩٤.

(٩) عبدالله بن عبدالمحسن التركي، أصول مذهب الإمام أحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ص ١٠٣.

(١٠) نفسه، ص ١٠٥.

(١١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، الرياض، ١٣٨٣ هـ، ج ٥، ص ٣٦.

(١٢) الميزان، ج ١٢، ص ١٤٦.

(١٣) الدر المنثور، ج ٥، ص ٦٧.

(١٤) علي حرب، نقد النص، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص ١٣.

(١٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، لا تا، لا م، ج ٦، ص ٣٥.

(١٦) آية الله معرفت، التمهيد في علوم القرآن، ج ٣، ص ٥٣ و٥٤

(١٧) الطبري، التفسير، ج ٣، ص ١١٦.

(١٨) التمهيد، ج ٣، ص، ٥٧

(١٩) شاهنامة الفردوسي، تصحيح مصطفى جيحوني، طهران، دار الشاهنامة، ١٣٧٩، ج ١، ص٦ (الديباجة، البيتان ١١٨ و ١١٩).

(٢٠) الزركشي، البرهان، ج ٢، ص ٧٢ و ٧٣

(٢١) التمهيد، ج ٣، ص ١٠.

(٢٢) السيوطي، الإتقان، ج ١، ص ٤١٧ إلى ٤٢٦.

(٢٣) نفسه، ص ٤٣١ و٤٣٢

★ ★ ★